منهج الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في البحث اللساني

د. سعاد شرفاوي
جامعة قاصدي مرباح
(ورقلة) الجزائر

إن مؤلفات الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح اللسانية تصنف ضمن لسانيات التراث[1]، والتي تهدف أساسا إلى قراءة التصورات التراثية اللغوية، وإحيائها وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث، ومحاولة التوفيق بين نتائج الفكر اللغوي القديم والنظريات اللسانية الحديثة. وهو ما يعرف بمنهج القراءة، أو إعادة القراءة. ورغم ذلك فقد تميّز كل باحث بقراءته الخاصة. وما يمكن ملاحظته أن منهج الحاج صالح اللساني فرضته، أورسمت خطاه قضاياه التي اشتغل بها، وهي في عمومها محاولة إحياء التراث اللغوي العربي، وتصحيح الأخطاء التي اعتقدها في فهم الباحثين وتأويلهم لآراء النحاة الأوائل. وما صاحب ذلك من نقده لأتباع النظرية البنوية خاصة. وسنقف في هذا البحث على منهجه في بحثه اللساني، وعلاقته بالمنهج اللساني العربي، والمنهج اللساني العام. وسنتتبع هذه الخصائص المنهجية في كتابات الباحث، ونكشف مميزاتها، وقيمتها ومساهماتها في إثراء المنهج اللساني العربي الحديث، وكذلك نقف على بعض نقائصها. وقد قسمت هذه

1 _ في مقابلة جمعتني بالأستاذ الحاج صالح قلت له: إن كتاباتك اللسانية تصنف ضمن لسانيات التراث، قال لي: « صحيح والدليل أني أحييت تراث الخليل». مقابلة مع الباحث بالمجمع الجزائري، بتاريخ: 29/ 05/ 2012 م، من سا 10 إلى سا 11.

الدراسة على ثلاثة فروع أساسية، فخصصت الفرع الأول للحديث عن منهج الباحث في التأليف، أما الفرع الثاني فكان حديثي فيه عن منهجه في قراءة التراث النحوي العربي، وحاولت في الفرع الثالث رصد أهم خصائص منهج البحث عند عبد الرحمن الحاج صالح.

I _ منهجه في التأليف

1 _ خصائص عامة لمؤلفاته

يمكن استخلاص بعض خصائص منهج الحاج صالح في التأليف، من خلال تصفحنا لكتبه المطبوعة خاصة، بالإضافة إلى مقالته المنشورة، ونذكر منها:

أ _ **التكرار في الموضوعات:** من خلال تتبعنا لكتابات الباحث، فإننا نلحظ عليها التكرار، وهذه الصفة تشمل تكرارا للموضوعات، وللمعلومات داخلها. وإن كنا نحس أن هذه الصفة سلبية من خلال ما تبعثه من ملل في النفس، وتشويش في الأفكار، إلا أنه قد يكون لها جانبها الإيجابي، ويتمثل أساسا في تيسير ما صعب فهمه، خاصة وأن كتاباته قد يميزها أحيانا بعض الغموض إذا تعلق الأمر بقضايا جديدة. ولذلك وجدنا الباحث يكثر مثلا من المواضيع التي تعرّف بالنظرية الخليلية الحديثة، وبمبادئها الأساسية[1]، لجدتها على القارئ. ومن جهة أخرى قد تكون هذه الصفة في مؤلفاته سببها أن كتاباته في بدايتها كانت في شكل مقالات قبل أن يؤلف الكتب، وقد ألقيت هذه المقالات في ملتقيات. وأكبر موضوعين قد شغلا الحاج صالح، هما: أولا النظرية الخليلية الحديثة، ثم الذخيرة اللغوية العربية. وخاصة مشروع الذخيرة العربية، الذي هو مشروع قومي توجه به للحكومات العربية، وحتى القرّاء العاديين، وسعى إلى الإقناع بجدوى أفكاره. والملاحظ على هذه الأفكار

1 _ وقد عرّف بهذه النظرية في كتابه علم اللسان العربي وعلم اللسان العام، المطبوع باللغة الفرنسية، وأيضا في كراس المركز الذي يحمل هذا العنوان: «النظرية الخليلية الحديثة»، أيضا، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية.

التي جاءت في مقالاته، قد طورها بعد ذلك _في كثير من الأحيان_ في كتبه التي شكل بها سلسلته في علوم اللسان. أيضا كتابه الذي هو في أصله أطروحته في الدكتوراه الذي عنوانه «علم اللسان العربي وعلم اللسان العام»، والذي نشر باللغة الفرنسية، وكان من المنتظر أن يترجم إلى اللغة العربية، وهو لم يترجم بعد، وربما يرجع السبب في ذلك أن أغلب الأفكار والمعلومات التي ضمها هذا الكتاب_ وهي باكورة أعمال الحاج صالح_ قد نشرها بعد ذلك في مقالاته، والتي ضمتها كتبه: بحوث ودراسات في علوم اللسان، وكذلك بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، وأيضا الكثير من الأفكار نفسها أعاد نشرها في كتبه ضمن سلسلة في علوم اللسان. وفي الحقيقة سمة التكرار نجدها تكاد تكون عامة في كتابات اللغويين المحدثين، الغرض الأساس منها التعريف بنظرياتهم، ومحاولة نشرها، فإذا تتبعنا مؤلفات تمام حسان مثلا لوجدنا أغلبها حديثا عن نظرية القرائن، الخاصة به.، ويمكن الحكم بأن التكرار أصبح سمة ظاهرة في الكتابات اللسانية العربية الحديثة، والجدير بالذكر أنها قد ميزت اللسانيات الغربية أيضا؛ مثلما هو الحال في مؤلفات تشومسكي، الذي كان يطور نظريته في كل مرة، ويظهر ذلك في كتبه المتوالية.

ب _ ربط التراث بالتكنولوجيا والعلوم الدقيقة: يقول الباحث: «قال لي أحدهم: وهل الخليل عنده نظريتان حتى تقول الحديثة؟، فقلت له: الحديثة هي ما تأولته أنا، وقد أكون صحيحا، وقد أكون مخطئا . [ويضيف]: أخذت نظرية الخليل وتأولتها بحسب ما تتطلبه المقاييس العلمية»[1]. وقد وجدنا الحاج صالح ربط في عناوين بحوثه بين اللغة العربية وتراثها والتكنولوجيا الحديثة، من خلال العناوين الآتية:

1_ «اللغة العربية والبحث العلمي المعاصر أمام تحديات العصر[2]»

2_ «الإطار التجريبي النظري لنحو الخليل وسيبويه» [3]

1_ مقابلة مع الحاج صالح: بالمجمع الجزائري. 03 /11 /2013، من سا 10 و30 د إلى سا 11 و30د.

2_ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص125.

3 _المرجع نفسه، ص59.

3_ « المعجم العربي والتكنولوجيا الدقيقة[1]»

4_ «دور النظرية الخليلية الحديثة في النهوض بالبحوث الحاسوبية الخاصة باللغة العربية[2]».

5_ «حوسبة التراث العربي والإنتاج الفكري العربي في ذخيرة محوسبة»[3].

6_ « الحركة والسكون عند الصوتيين العرب وتكنولوجيا اللغة الحديثة.»[4]

7_ «الأسس المنطقية الرياضية للتحليل النحوي الصرفي عند الخليل.»[5]

8_ « مفهوم وجوه التصرف عند الخليل والعاملي في الرياضيات الحديثة[6]».

ومن خلال هذه العناوين التي ربط فيها الباحث بين التراث اللغوي العربي وميدان التكنولوجيا وبعض العلوم الدقيقة والعصرية كالرياضيات والحاسوبيات، نجد أنها وردت كلها في محور حديثه عن ترقية اللغة العربية. والباحث يكشف عن منهجه اللساني في تصور تحديات راهنة للغة العربية، لبلوغ نضجها العلمي والمناسب لعصرها. ونجده يدعو إلى الاستعانة بالحاسوب لتحديث العمل المعجمي، وما يمكن أن يستفاد منه في سهولة هذا العمل، وسرعته، وكذلك القدرة العظيمة على دمج الآلاف من الكتب، أو أي نوع من البرامج. وكذلك مساهمة الذخيرة اللغوية المحوسبة في تحقيق هذه الأهداف[7]. أيضا قام الباحث بمقارنة الحركة والسكون عند الصوتيين العرب، بتكنولوجيا اللغة الحديثة.

2 _ تطور منهجه في التأليف

أ _ تطور في طبيعة المؤلف ولغته

1 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2 ، ص167.

2 _ المرجع نفسه ، ص80.

3 _المرجع نفسه، ص148

4 _المرجع نفسه، ص175.

5 _ المرجع نفسه، ص68.

6 _ المرجع نفسه.

7 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2 ، ص167.

وعبد الرحمن الحاج صالح في بدايته، وقد انتهج ميدان البحث فإنه من الطبيعي أن يتجه إلى تأليف المقالات في هذه المرحلة المتقدمة من مساره البحثي، وقد نشرت هذه البحوث في مجلات عديدة، وألقي البعض منها شفهيا في ملتقيات وندوات، وكان ذلك منذ الستينات واستمر إلى آخر أيام عمره. وقد انتقل بعد ذلك إلى تأليف الكتب في مرحلة لاحقة، ويمكن اعتبار توجه الحاج صالح إلى تأليف الكتب قد تأخر نسبيا مقارنة مع تمكنه العلمي، بينما هذا السلوك سببه قناعة الباحث بضرورة الرزانة والتروي قبل إخراج أعماله، حتى لا يفسدها ما يحتمل من ارتجال أو تسرع، وقد أكد لي ذلك[1]. فبعد أن جمع بحوثه في كتابين، خصص الأول لعلوم اللسان، والثاني للسانيات العربية، وكان ذلك سنة 2007 م. وهو لم يبتعد زمنيا بعد ذلك، بتأليفه لسلسلة علوم اللسان، وكانت حلقتها الأولى، وهو كتابه السماع في نفس السنة، ثم أخرج الحلقة الثانية، والثالثة بعد ذلك، وهما منطق العرب في علوم اللسان، تم الخطاب والتخاطب؛ أي بمعدل كتاب كل ثلاث سنوات من سنة 2007م، إلى سنة 2013 م. و الحلقة الرابعة(البنى النحوية) سنة 2016م.

أما عن لغة التأليف، فإن الباحث ألف باللغة العربية، وباللغات الأجنبية، فقد ألف باللغة الفرنسية، والإنجليزية والألمانية، إلا أن ما هو باللغة العربية كان أكثرها. وكان يغلب عليها في البداية اللغة الفرنسية، خاصة ما نشر منها في مجلة اللسانيات في السبعينات، وربما كان ذلك سببه الجمهور الذي توجه إليه بكتاباته(المغاربة منهم خاصة)، حيث كان معظمهم مثقفا بثقافة فرنسية. ويلاحظ عليه بعد ذلك أنه زاوج بين اللغتين الفرنسية والعربية، وقد وجدنا اللغة العربية هي لغة كل كتبه فيما بعد. وقد استقرت اللغة العربية لتكون وحدها لغة التأليف عنده.

1_ في حواري مع الباحث أخبرته بهذه الملاحظة، فردّ: لم أكن متأخرا، ولكن أجد ما جاء من أفكار في كتبي، كانت لا زالت تتخمر، وقد أخذت الوقت الكافي لنضجها، وإخراجها، وأنا أعطيها بعد اكتمالها في الوقت المناسب: مقابلة مع الحاج صالح، بالمجمع الجزائري للغة العربية، بتاريخ: 03/ 11/ 2013 م. من سا 10 إلى سا 11

ب _ تطور في الموضوعات: إن الموضوعات اللسانية التي كتب فيها الباحث في بداية اشتغاله بالتأليف في الميدان اللساني، كانت مناسبة للمرحلة التي كتبت فيها وهي اللسانيات التمهيدية المعرّفة بتاريخ اللسانيات الغربية للقارئ العربي. ثم تطور منهجه بعد تأليفه في موضوع النظرية الخليلية الحديثة، وقد ترتب على ذلك إعادة تصنيف الباحث ضمن زمرة المؤلفين في اللسانيات التمهيدية، إلى زمرة أخرى، وهي لسانيات التراث. وهناك من الباحثين من يزاوج بين الاتجاهين. إلا أن الحاج صالح لم يهتم بنقل الثقافة الغربية في اللسانيات، للجمهور العربي، من خلال مؤلفاته، وإن كان لا يمانع في، وليس غافلا عن ذلك، وربما يحتفظ بهذه الثقافة لنفسه، إلا ما قد قدمه عارضا دون قصد أثناء شرحه لمسائل لسانية عربية تستوجب المقارنة، أو محاولة تأصيل بعضها الآخر في التراث اللغوي العربي، خاصة عند تأصيل نظرية الخطاب العربية، وقد وجدنا الحاج صالح يعرّف بنظريات الخطاب الغربية. خاصة ما اعتقده فيها من تقاطع مع نظرية الخطاب العربية في بعض المسائل.

وبالنظر في مؤلفات الحاج صالح، نلحظ عدم استقراره في الاشتغال بمستوى لغوي بعينه، فعند إخراج النظرية الخليلية الحديثة، وفي سلسلة علوم اللسان، كان تركيزه في الحلقتين الأولى والثانية منها على مستوى واحد من اللغة، وهو المستوى النحوي(نحو الخليل ومن تبعه)، أما الحلقة الثالثة فإن تركيزه اتجه إلى المستوى البلاغي من اللغة، ومن هنا يمكن استخلاص تطور الفكر اللغوي عند الحاج صالح من التركيز على الجانب الصوري والعقلي الذي يميز المستوى النحوي عند إخراج النظرية الخليلية الحديثة، إلى الاشتغال بالجانب الدلالي في المستوى البلاغي عند حديثه عن نظرية الخطاب العربية. ولعلنا نستنتج أن تطور منهج الحاج صالح اللساني، من حيث الموضوعات المهتم بها، يعكسها بالدرجة الأولى تطور الفكر اللساني الغربي، والمنتج الأصلي لهذه القضايا. وهي محاولة من الباحث لتأصيل الفكر

اللساني العربي في التراث اللغوي العربي. وفكرة التأصيل في اللسانيات العربية الحديثة يمكن اعتبارها عموده الفقري؛ وقد وجدنا أن عمل اللسانيين العرب المحدثين لم يتجاوز ذلك في كثير من الأحيان.

وبالنسبة للغة العربية، وقضاياها، فقد حاول مسايرة التقدّم (الموضة)[1] على رأي الحاج صالح، فعند تتبعي لمؤلفاته وجدت أنه قد اهتم في بداية مشواره بالقضايا ذات الطابع التاريخي، كنشأة النحو العربي، وأصالة النحو العربي، وغير ذلك. ونجد أن هذه القضايا لها أهميتها للغة العربية، إلا أن اللغة العربية الراهنة لها قضاياها المهمة أيضا، وهي جديرة بأن يلتفت إليها الباحثون واللسانيون، وقد انتبه الحاج صالح إلى هذه الأهمية فيما بعد، وتجاوز القضايا التاريخية في اللغة، ودلالة ذلك اهتمامه الكبير بالتأليف في مشاكل اللغة العربية العصرية، ولعل أهمها مسألة الثنائية اللغوية ومشاكلها مع اللغة العربية، وأيضا قضايا ترقية اللغة العربية. وقد عالج هذه القضايا بطريقة واقعية، موضوعية، بعد أن اجتهد في الوقوف عليها، وعلاقتها بالتغيير الاجتماعي كميدان إنساني، وصلتها بالميدان التقني والعلوم والتكنولوجيا، كآفاق وتطلعات مستقبلية.

II _ منهجه في قراءة التراث النحوي العربي

الملاحظ على الكتابة اللسانية العربية، أن الغلبة فيها للسانيات التراث، بفروعه المختلفة، الوصفي والتوليدي، والوظيفي. وقد وجدت بالربط بين التراث اللغوي العربي، واتجاه لساني غربي معروف. وسببه اعتقاد اللساني مناسبته للغة العربية ولتراثها، لبناء لسانيات عربية حديثة. غير أن عبد الرحمن الحاج صالح الذي صنفت كتاباته ضمن لسانيات التراث، لم يظهر عليه التبعية المطلقة لاتجاه لساني غربي برمته.

1 _يقول الحاج صالح عن مؤلفه «الخطاب والتخاطب»، لقد أصبح التأليف في موضوع الخطاب هذه الأيام من الموضة، ولذلك كان مني هذا المؤلف، وبحثت بما اختص به اللغويون العرب في ذلك في كتب التراث اللغوية، وهو يخص جانب البلاغة، أكثر من النحو. مقابلة مع الباحث بالمجمع الجزائري للغة العربية، بتاريخ: 12/06/2011 م. من سا 9 إلى سا 10 و30 د.

وإن ما لاحظه مصطفى غلفان، هو أن جل الكتابات المندرجة في إطار لسانيات التراث لا تقدم أي تصوّر للمنهج المتبّع في القراءة، بل لكل باحث طريقته، وأدواته التي يسير عليها في قراءته للتراث اللغوي العربي القديم في ضوء اللسانيات الحديثة.[1] بينما يرى المسدي: « أن قراءة الميراث الإنساني منهج لا يعوزه التأسيس المعرفي في حد ذاته...وما التراث إلا موجود لغوي قائم الذات...وإعادة قراءته تجديد لتفكيك رسالته عبر الزمن، وهي بذلك إثبات لديمومته ووجوده. ولكن إثبات الديمومة لا يقف عند حد تمجيد الماضي فحسب، إذ يحتاج إلى بناء مؤسس يناسب الحاضر والمستقبل لدفع البحث اللساني العربي منهجيا ونظريا».[2]

وبعودة عبد الرحمن الحاج صالح إلى التراث اللغوي، واعتباره قاعدة أساسية، ومنطلقا لبحثه اللساني، فمن الضروري أن يكون مسلحا بآليات منهجية لقراءة هذا التراث وإحيائه، متكئا على معارفه العميقة للتراث النحوي العربي، واطلاعه الواسع على اللسانيات الحديثة، والعلوم العصرية. ويمكننا الوقوف على منهج القراءة عنده، من خلال ما وضحه في مقدمة كتابه السماع اللغوي العلمي عند العرب، بالإضافة إلى ما يمكن استنتاجه من قراءة بقية مؤلفاته، فقد ركز على إبراز الجانب العلمي في النحو العربي، والاعتداد به، ذلك أن العلم موجود في كل المجالات الدقيقة، ومنها اللسانيات، فقد اعتمد على مجموعة من الأصول، ودعا العلماء إلى تطبيقها على التراث اللغوي العربي، وهي كما يأتي:

أ _ فيما يخص الرواية ومدى ثقة الباحث فيها:

1 _ اعتماد أقوال القائل نفسه:

يؤكد الحاج صالح على ضرورة الرجوع في النصوص إلى ما قاله القائل نفسه، والامتناع من الاكتفاء بما يروى عنه، ويرى أن الكثير من الأخطاء

1_ اللسانيات العربية الحديثة(دراسة نقدية في المصادر والأسس المنهجية)، ص140.

2 _مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص19.

التي وقع فيها بعض اللغويين المتأخرين، وحتى المحدثين سببها ما قد يقع من زيف للحقائق بسبب عدم تتبع الأقوال الأصيلة، ولذلك فإنه حرص على هذا النهج في التعامل مع النصوص القديمة، ومنها نصوص سيبويه خاصة، وكتب الشروح بعد ذلك، وقد سمع أصحابها منه مباشرة. ويعتبر هذا أصل الأصول؛ إذ هو من الحجج الموثوقة، وهي الحجج القوية الصادرة من المعني بالأمر لا غير[1]. ولقد كان الباحث في استشهاده بالنصوص النحوية، يرجع إلى القائل نفسه، ومثال ذلك قوله: « أما ما قاله ابن السراج عن التساهل في استعمال الكوفيين للقياس، فسنحاول أن نستشهد بما قاله الكسائي، والفراء مما قالاه بأنفسهما لا فيما روي عنهما بعد عدة قرون»[2]، ولا أحد يستطيع أن ينكر ضرورة أن نأخذ من النصوص الأصيلة للقائل، من باب أولى، بدل الرجوع إلى ما نقل عنها، ونرى أن المقصود به ليس الامتناع من الاطلاع على هذا النقل، الذي قد نفعله من باب التعمق في الأفكار، أو حتى الاستئناس. ولكن ذلك لا يجب أن يمنعنا من الانطلاق من النصوص الأصيلة، في إصدار أحكامنا، لا ما قيل عنها.

2 _ الأخذ من روايات متعددة:

من المسلم به أن تعدد وجوه الرواية مع اتفاق محتواها هو مدعاة إلى الجزم بصدقها، ولذلك يرى الباحث ضرورة الاعتداد في التصديق لما يروى من الأحداث، ومن الأقوال بأن يكون من أكثر من وجه؛ أي بالروايات الصادرة من مصادر مختلفة، ولا تكون منقولة بعضها عن بعض، والرفض لكل ما ينفرد به راو إذا خالف بذلك كل الروايات الأخرى، أو خالف المعني بالأمر، أو أفعاله، وكل ما تركه لنا من آثار، ولا سيما إذا كان طعنا صريحا يمس أخلاق القائل وسمعته، أو يحط من قيمته العلمية[3]. ولم يختلف هذا الأصل عن الأصل الذي سبقه، وفيه تأكيد على ضرورة الرجوع إلى أقوال القائل نفسه.

1_ السماع اللغوي العلمي عند العرب، ص9، 10.

2_ منطق العرب في علوم اللسان، ص266.

3 _السماع اللغوي العلمي عند العرب ، ص10.

ويدل على ذلك تشابه الروايات التي روت هذا القول. وهذا يحيلنا إلى الأصل الذي يليه، وهو ضرورة التخير للمصادر.

3_ التخير في التعامل مع المصادر:

قال لي الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: « وليكن في علمك أني لا أتعامل مع المصادر _أي مجموعة ما ألف من كتب لغوية عربية_ بشكل واحد»[1].

فهو يؤمن بضرورة الاصطفاء للمصادر، وتخيّر ما أجمع العلماء قديما وحديثا على صحته، وعدم التخليط بين الكتب العلمية التي شهد لها بذلك جميع الاختصاصيين، وبين الكتب شبه العلمية التي ألفت في الغالب للتسلية، وهي التي احتوت على الكثير مما يسلو به القارئ، كالحكايات، والمسامرات، فاختلط فيها الصحيح بالزائف، والحوادث الحقيقية بالخرافات، والأساطير، وكان لا بد من التحفظ الشديد مما ترويه، ومما تنفرد به من الأخبار. وإن المتتبع لمؤلفات الحاج صالح يلحظ أن المصدر الأساس له في أغلب بحوثه، هو كتاب سيبويه، لمكانته الخاصة عنده، وعند غيره أيضا، لعدة مزايا توفرت في هذا الكتاب[2] ، وقد أبدى رأيه في عدم الوثوق ببعض المصادر، ككتب الطبقات[3]، أيضا كتاب الأغاني للأصفهاني، والموشح للمرزباني، وقدّم أدلة يثبت بها هذا الاعتقاد في عدم صحة الأخبار فيها. ونجد أنه لم يكشف عن مصادره الحديثة، وما تعلق منها باللغات الأجنبية خاصة، أما المراجع العربية الحديثة، فلا يستشهد بها إلا نادرا، مع أننا لا نستبعد اطلاعه على أكثرها. وهو لم يسم بعضها إلا للرد عليها، وتصحيح ما عدّه أخطاء فيها، وعدم فهم لأغراض النحاة الأولين.

1 _ مقابلة مع عبد الرحمن الحاج صالح بالمجمع الجزائري، بتاريخ:29/05/ 2012 م. من سا 10 إلى سا 11.

2 _ فكتاب سيبويه هو أول كتاب في النحو العربي، وهو يعكس نشاطا مكثفا لعصره، وهو يمثل مرحلة متقدمة وناضجة من التفكير اللغوي، هذا التفكير ظهر بالموازاة مع نضوج العلوم الدينية، بما فيها علم الأصول (الحديث، والكلام) Basset. L et Pérennec. M, *Les classes de mots traditions et perspectives*, presse universitaire de Lyon, 1994,p.93

3 _ السماع اللغوي العلمي عند العرب، ص 10.

ب _ فيما يخص لما قصده بالفعل أصحاب النصوص

4 _ ضرورة التصفح الكامل للنصوص:

التمسك بمبدأ التصفح الكامل للنص الواحد أو لعدة نصوص ليتمكن الباحث من إدراك المقصود الحقيقي في استعمال صاحب النص لألفاظ خاصة، أو التعليق أو الحكم على قول من أقواله. ولا يكتفي في ذلك بالرجوع إلى بعض ما يوجد في نصوصه وترك البعض الآخر، وقد يكون مهما[1].

5 _ طريقته الاستكشافية:

الاعتماد بعد هذا التصفح الكامل للنص على طريقة تحليلية استنباطية ترمي إلى استخراج لا المعاني الوضعية لألفاظ النص بل المعنى المقصود من كل لفظة، وفي كل النص إن كان المقصود واحدا، أو في مواضع مختلفة منه إن تعددت المعاني المقصودة من الكلمة الواحدة. وهذا لا يبينه بكيفية دقيقة إلا مجموع السياقات التي ترد فيها الكلمة. والطريقة التي استخدمها الباحث لهذا الغرض سماها بالمقارنة القياسية الدلالية.[2] ويقول عنها أيضا: إنها منهج للاكتشاف، والذي يسمح لنا بمعرفة المعنى أو إلغائه، ومن المفترض أن يكون منهجا للعرض في نفس الوقت من خلال الموضوعية والصرامة المكتسبة، وتتركز أساسا على مفهوم التوزيع، كما نفهمه نحن. والمهم في هذه الطريقة التحليلية ليس الوقوف على الآثار الدلالية فحسب، لكن من المهم الوقوف على المعنى الدقيق المستهدف من قبل الكاتب في استخدام عبارة أو وحدة لفظية، وما يجب توظيفه هو كشف ما هو موجود من توازن وتماثل بين الاختلافات في السياق من جهة، والاختلافات في المضمون اللفظي الملاحظ من جهة أخرى[3]. وإن الكثير من الأحكام وحتى التعريفات وصل إليها الحاج صالح عن طريق المقايسة الدلالية، فقد اعتمدها في البرهان واستخلاص

1 _السماع اللغوي العلمي عند العرب، 11.

2 _المرجع نفسه، ص16، 17.

3_ Lingustique arabe et Lingustique générales, TI ,p23 ,24.

الحقائق اللغوية، وذلك عن طريق المقايسة الدلالية، وقد دعا إلى إعادة الحقيقة كاملة من خلال النصوص الأصيلة للأوائل.

6 _ مراعاة تحول المعاني بعامل الزمان:

الاعتداد الجدي المستمر بعامل الزمان في تحول رؤية العلماء، وتصوراتهم ومفاهيمهم، وما يحصل بالتالي لمصطلحاتهم_حتى في النحو واللغة_ من تحول معانيها.[1]

7 _ تمحيص النظريات اللسانية الحديثة:

ضرورة التمحيص الموضوعي الدقيق للنظريات اللسانية الحديثة؛ إذ لا يجوز أن تقبل أي نظرية، كليا أو جزئيا، إلا كآراء وافتراضات، خصوصا إذا استخرجت من النظر في لغة أوروبية، وذلك لتفادي التخليط بين المفاهيم الغربية القديمة، وبين ما ظهر من الأفكار والمناهج في اللسانيات الحديثة، بل وتفادي إسقاط هذه الأخيرة على الأخرى وجعلها أصلا، والأخرى فرعا عليها. ومن ذلك ضرورة النظر في مفهوم المعيار اللغوي، وفيما عيب على المعيارية دون التمييز بين العلمية منها والتعسفية.[2] وإن كنّا نعتبر الانفتاح على النظريات الغربية الحديثة، في البحث اللساني العربي الحديث، ضرورة علمية، فإنها قد تشكل خطرا عليه. وقد تكون مما ابتلي به النحو العربي ، وهو نتيجة الإسقاط الحرفي لمختلف النظريات الغربية على النحو العربي، وتطبيقها دون فحص، أو تمحيص مسبق، وقد سبّب ذلك خللا منهجيا في البحث اللساني العربي الحديث، تمثل أساسا في النظرة التجزيئية للنحو العربي، لعدم صلاح تطبيق هذه النظريات على النحو العربي بصفة كلية، لخصوصية اللغة العربية. وأيضا قد يكون سبب عدم صلاح هذه النظريات وفشلها في موطنها الأصلي، ومثال ذلك البنوية.

---

1 _السماع اللغوي العلمي عند العرب، ص10.

2 _المرجع نفسه، ص11.

III _ خصائص منهجه في البحث اللساني

استنتجنا خصائص عامة لمنهج الباحث، الذي ميّزه في بحثه اللساني، وأهمها:

أولا _ توخي المنهج العلمي

من خصائص البحث اللساني الحديث، المنهجية العلمية الصارمة، والتي جعلته ينخرط في مصاف العلوم الدقيقة، ونجدها حققت الموضوعية في هذه الدراسة. وعند تتبعنا لأعمال الباحث نجده قد حاول توخي المنهج العلمي في بحثه اللساني من خلال حرصه على مجموعة من العوامل، نذكر منها ما يأتي:

أ _ بأن يقترح أصولا وأسسا وقوانين علمية:

ومنها ما جاء عناوين لبعض بحوثه، أو جزئيات من متن بحثه، ونذكر منها:

1_ «أصول البحث العلمي في التراث اللغوي كما يجب أن تكون في نظرنا.»[1] وقد تكلمنا عن هذه الأصول في حديثنا عن منهج الحاج صالح في قراءة التراث.

2 _ «الأسس العلمية لتطوير تدريس العربية»[2] وهو بحث ألقي في ندوة اتحاد الجامعات العربية في الجزائر عام ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين[3] ويؤكد الباحث أن هذا العمل (ويقصد التعليم)، لا يتم إلا إذا بني على أسس علمية؛ أي على ما توصل إليه، أو ما سوف يتوصل إليه البحث اللغوي، وغيره كالبحوث التربوية والنفسية اللغوية. وقد ركز في هذه الأسس على الجمع بين الجانب العلمي، والمتمثل في البحوث النظرية المنجزة في هذا الميدان، ثم الجانب العملي، والمتمثل في البحوث الميدانية، مع حرصه دوما على كشف الوضع الحقيقي لشتى الظواهر، وذلك لضمان موضوعية الأحكام،

1_ السماع اللغوي العلمي عند العرب، ص9.

2 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص158.

3 _ المرجع نفسه. هامش ص158.

وواقعيتها، للتنبؤ بالحلول العملية المناسبة بعد ذلك[1]. وعند ملاحظتنا لهذا العنوان نجد أنه لم يحدد الفئة المقصودة بهذه الأسس، وبعد قراءتنا لهذا المقال، لا نكاد نتبين ذلك أيضا؛ إذ هو تحدث في بداية المقال عن الجامعة، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن أطفال المدارس. وربما كان تعيين الفئة ضروريا لتحديد أسس أخرى غير لغوية، لكن لها علاقة بهذه الأسس، وهي تربوية، ونفسية. ونجد أنها مما يمكن تحديدها بمعرفة المرحلة التدريسية المقصودة، فهي تختلف من مرحلة إلى أخرى، حيث يتحكم في ذلك خصائص المتعلم النفسية، وقدراته العقلية. ونجد أن الباحث ركّز على الجانب اللغوي، دون غيره حتى يكون جامعا، ويصلح لأي فئة عمرية، ووجدنا أنه قصد اللغة المستعملة، وقياس حضور اللغة العربية في ميادين الحياة، وبذلك نحدد مدى قوتها أو ضعفها. وما يمكن استخلاصه من هذا المقال، أن الحاج صالح أظهر تركيزه على ضعف اللغة العربية أكثر من حديثه عن سبل تدريسها، الذي هو الموضوع الأساس في هذا المقال بالنظر إلى عنوانه. وقد يكون الباحث مقتنعا أن الطريق الأمثل للقضاء على أسباب تدهور اللغة، هو تحسين تعلمها. وما يمكننا أن نستنتجه أن الباحث لم يهتم بالتعليم في حد ذاته، من حيث مشاكله، وكيفية حلها، ولكن كان تركيزه على ما يربطه بأسباب ضعف اللغة العربية، وطرق علاجها، وسبل ضمان قوة اللغة العربية.

3_ «الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي».[2] وهو بحث ألقي في بناء المناهج التعليمية بجامعة الإمام محمد بن السعود بالرياض في سنة ألف وتسعمائة وخمسة وثمانين[3]. وقد قدّم الباحث هذه الأصول في شكل مقترحات تتخذ مبادئ عامة لبناء المناهج التعليمية، وهي كما يأتي:

---

1 _ المرجع نفسه، ص158.

2 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، ج1، ص174

3 _ المرجع نفسه. هامش ص 174.

_**الأول:** أصل الأصول هو العناية بالمتعلم، والتفطن إلى حاجاته التعبيرية الحقيقية، بما في ذلك اهتماماته، والألفاظ والعبارات التي تستجيب لهذه الحاجات.

_**الثاني:** يدرج في المناهج الأداء الصوتي كدرس مستقل، بالاعتماد على الأوصاف العلمية لمخارج الحروف والظواهر الصوتية العربية، وكذا على الأداء للنص القرآني.

_**الثالث:** يدرج في المناهج مجموع القواعد الخاصة بالمستوى المستخف من التعبير الفصيح.

_**الرابع:** يعتمد الرصيد اللغوي الذي تشرف على إنجازه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في انتقاء المادة اللغوية وتدريجها.

_**الخامس:** تقدم القواعد لا كقوانين محررة، بل كأنماط ومثل، ويستحسن أن تصاغ بالرموز.[1]

فقد أطلق الحاج صالح على الأصل الأول، أصل الأصول، ونؤيده في هذا الحكم؛ إذ محور العملية التعلمية هو المتعلم الذي له ما يميزه من خصوصيات، واحتياجات، ويجب أن ترتبط به كل الأصول التي أدرجها بعد هذا الأصل. أما الأصل الثاني والثالث فإن لهما أهميتهما في بسط استعمال اللغة العربية الفصحى في الخطاب اليومي، من خلال تعميم جانب صوتي يمكن استنباطه من القراءات القرآنية، وقد جهل ذلك الكثير من المعلمين بله التلاميذ. أما الأصل الرابع والخامس، ففكرتهما هي مما حرصت عليه المعاجم الحديثة، وهو الانطلاق من اللغة المستعملة في بنائها، حتى نقرب المسافة بين لغة المدرسة، ومحيط الطفل اللغوي، وذلك تفاديا للفجوة والغرابة. وقد شملت الأصول الثلاثة الأخيرة، الحديث على ما يعرف بقواعد اللغة، من نحو وبلاغة، وقد دعا إلى تناولها كأنماط لا كقوانين، وهو يدعو

1 _ المرجع نفسه، ص188، 189.

إلى تعلمها ذهنيا، مثل الرياضيات، وهذا ما يعد تطبيقا للنظرية الخليلية الحديثة في ميدان التعليميات.

4_ «القوانين العامة التي أثبتتها اللسانيات مما لا يجوز للمربي أو مدرس اللغة جهله».[1] وهو جزء من مقال لعبد الرحمن الحاج صالح، وعنوانه»أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية»، وقد نشر هذا المقال في مجلة اللسانيات في عددها الرابع الذي صدر سنة (1973 – 1974) [2].

ب _ الانفتاح على العلوم والمناهج الحديثة

1 _ الانفتاح على المنطق والرياضيات

حيث يقول الباحث: من العوامل التي صنعت شخصيتي العلمية في البحث اللساني:

_ اطلاعي الواسع على المنطق اليوناني والمعاصر[3].

_ تمكني من الرياضيات.[4]

وما يمكن ملاحظته من تتبع عمل الحاج صالح اللساني، أن أغلب أفكاره مبنية على إثبات صحة المنطق الذي اتبعه النحاة الأوائل في عملهم النحوي، وما كان يميزه من منطق رياضي، وأنه بعيد عن مبادئ المنطق الأرسطي في النشأة.

---

1 _ بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص181.

2 _ بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص181.

3 _ يقول الحاج صالح: «لقد درست المنطق في وهران على الحصير كمادة من المواد الإسلامية. ولو بقيت أفهم سيبويه بسيبويه فقط ربما كان الوقت أكثر من هذا بكثير، والذي سهل علي فهم سيبويه في الوقت، هو اطلاعي الواسع والعميق على المنطق اليوناني والمعاصر». مقابلة مع الحاج صالح بتاريخ: 22/ 05/ 2011 م. بالمجمع الجزائري. من سا 9 إلى سا 10 و30 د.

4 _ يقول الحاج صالح: « معرفتي للرياضيات فتحت لي بابا لم أكن أتصوره؛ فقد اكتشفت في كتاب سيبويه الكثير من الاستدلالات مبنية على مفاهيم رياضية حديثة، ولهذا كرست حياتي في كتابة ما اكتشفته. وكان هذا موضوع أطروحتي في الدكتوراه.» مقابلة مع الحاج صالح. بالمجمع الجزائري. بتاريخ: 22/ 05/ 2011م، من سا 9 إلى سا 10 و30 د.

2_ المنهج التاريخي

فقد اعتمد الباحث المنهج التاريخي كثيرا عند تتبعه للمفاهيم اللغوية، وتطور معانيها مع الزمن، ومثال ذلك: تطور كلمة فصاحة: تطور مفهوم الفصاحة كمصطلح عند اللغويين في القرن الثالث وما بعد ذلك.[1] أيضا تطور مفهوم الفصيح عند النحويين واللغويين بين القرن الأول والثالث.[2] وكذلك تحول مسمى العربي الفصيح في القرن الثالث وحصره في البدوي صاحب الغريب[3], وكذلك تطور مفهوم الفصاحة عند البلاغيين.[4] وأيضا التطور المكاني للفصاحة .[5] والتطور المكاني الزماني للفصاحة السليقية.[6] وكذلك تطور كلمة لغة:حيث أن كلمة (لغة) تطور معناها من الجاهلية إلى وقتنا الحاضر.[7] ولقد وجدنا تتبع الحاج صالح للمصطلحات اللغوية، ولتطورها التاريخي، كثيرا في مؤلفاته، وقد استغل هذه الخاصية، في تصحيح كثير من المغالطات التي اعتقدها في أفكار بعض النحاة المتأخرين، أو اللسانيين المحدثين، بالإضافة إلى المستشرقين، وهم لم يأخذوا في حسبانهم التغير الدلالي لهذه الألفاظ بعامل الزمن، وما يمكن أن يترتب عن هذا التغيير من ظواهر.

3_ المنهج التجريبي

إن نجاح النظريات اللسانية الحديثة، يقاس بمدى قابليتها للتجريب، وقد سعى عبد الرحمن الحاج صالح إلى تحقيق وجوده في مختبره، بما يخص الجانب الصوتي خاصة. حيث يقول الباحث: « إقامتي الطويلة في مختبرات في

---

1 _ السماع اللغوي عند العرب، ص42.

2 _ المرجع نفسه، ص49

3 _ المرجع نفسه، ص50.

4 _ السماع اللغوي عند العرب، ص59

5 _ المرجع نفسه ، ص72

6 _ المرجع نفسه، ص77.

7 _ المرجع نفسه، ص161.

ألمانيا، وباريس، وستاربورغ تعلمت منها مناهج التجارب الصوتية»[1]. وقوله:« أما بالنسبة لتراثنا العلمي اللغوي فإن اللجوء إلى الأجهزة يمكننا من الاختبار للنظريات التي نجدها في هذا التراث»[2]. وكان حرص الحاج صالح شديدا على هذا الجانب، ولذلك بادر بإنشاء مختبرا وجهزه بأحدث الأجهزة، من أجل اختبار الظواهر الصوتية عند القدماء، ومقارنتها بالدراسات الصوتية الحديثة. وكان مما دعم به منهجه اللساني، هذه الخاصية، وهي الاختبار قبل إصدار الأحكام.

ج_ بيان رأيه في أكثر المسائل التي عرضها

فقد كانت للحاج صالح شخصية علمية مستقلة حرص من خلالها على اختيار ما يراه صوابا؛ فهو يخطّئ، ويصحح، أو يرجح، ويضعف، ومن أمثلة ذلك:

1 _ التخطئة

الصفة البارزة في منهج الباحث تصحيح ما اعتقده من أخطاء، حيث يقول: «أنا أصحح الأخطاء وهذا هو الاجتهاد»[3]، ومثال ذلك:

_ قوله: «وما يزعمه الفارابي بأنه هو الحرف المتحرك غير دقيق لأن الحرف المتحرك لا يمكن في النظرة العربية أن يوقف عليه مع بقاء الحركة...»[4]

_ وقوله: «فالخطأ ههنا أن يجعل المتكلم هو المرجع مع أن حصول الفائدة هو للمخاطب.»[5] _ وفي قوله: «فأنا مقتنع أن أكثر المتأخرين زيادة على المستشرقين والمحدثين في زماننا هذا، الكل إلا القليل منهم، كان يخطئ في

1 _ مقابلة مع الحاج صالح بالمجمع الجزائري. بتاريخ: 27/ 09/ 2012 م. من سا 10 إلى سا 11.

2 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص265.

3 _ مقابلة مع الحاج صالح. بالمجمع الجزائري، بتاريخ: 03/11/2013 من سا 10 و30 دإلى سا 11 و30 د.

4 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص177.

5 _ الخطاب والتخاطب(في نظرية الوضع والاستعمال العربية)، ص259.

فهم الأغراض الأساسية لسيبويه بصفة خاصة والخليل، والخطأ بدأ منذ زمن. حتى تلميذه الأخفش فهو أول من أخطأ في فهم سيبويه.»[1]

_ وقال: «وقد أخطأ الغرض بعض من جاء بعد سيبويه في إدراك هذه المفاهيم إدراكا كاملا، وخاصة بعد تأثرهم بمنطق أرسطو. فمن ذلك حصرهم الفائدة فيما يؤديه المبتدأ، أو الفعل فقط، وجعل كل العناصر الأخرى عارية من الفائدة، لأنها عندهم معلومة.»[2]

_ وقوله: «وبذلك جمدوا الجملة المفيدة بإخراج كل ما يدخل في التخاطب الحقيقي من حيوية.»[3]

_وجاء في قوله: «لم يذكر سوسور هذا الذي زادوه، وهو عند البنويين الوظيفيين المقياس الأساس في تحليل اللغة، ووصفها؛ أي الوظيفة التمييزي (fonction distinctive)ويعتبر مونان هذا نقصا في تقويمه لأعمال سوسور، وليس الأمر كذلك.»[4]

2 _الترجيح:

فقد لجأ الحاج صالح إلى الترجيح في بعض أحكامه، حيث جاء في قوله: «نرجح أن ابن السراج هو أول نحوي استعمل كلمة استقراء كمصطلح في علم العربية.» [5]

3 _ التصحيح:

عُرف الباحث بجرأته الكبيرة في تصحيح الأخطاء، وهي التي اكتشفها عند غيره من الباحثين المعاصرين، وقد شمل ذلك حتى اللسانيين الغربيين،حيث جاء في قوله: « نلاحظ أن سوسور قد تردد في جعل الجملة موضوعا يدخل في دراسة اللغة، فقد صرح أنه ليس متيقنا بأنها من ميدان الكلام؛ أي

1 _ مقابلة مع الحاج صالح. بالمجمع الجزائري. بتاريخ: 27/ 09/ 2012، من سا 10 إلى سا 11.

2 _ الخطاب والتخاطب، ص259.

3 _ المرجع نفسه، ص259.

4 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، هامش ص243.

5 _ الخطاب والتخاطب(في نظرية الوضع والاستعمال العربية)، ص28.

الاستعمال. وكان يميل أن يجعله من ظواهر النحو، ولم يتفطن إلى أن بنيتها خاضعة لوضع اللغة...والاتساع فيها هو الذي يرجع للخطاب...»[1]

د _ الانفتاح على البحث اللساني الحديث

1 _ ضرورة الانفتاح على المناهج اللسانية الغربية

للوصول إلى تحقيق العلمية في بحثه اللساني، فقد حاول الباحث في تحليله المنهجي والمعرفي للقضايا اللسانية العربية انفتاحه على مستجدات البحث اللساني الحديث ، ومنهجه في ذلك واضح، وهو ضرورة الانفتاح على اللسانيات الحديثة. وإن كان الباحث يرفض الانصهار في المناهج اللسانية الغربية الحديثة، ومع ذلك نجده لم ينف ضرورة الانفتاح عليها، والاطلاع على مستجداتها، كما هو الحال مع علوم عصرية أخرى. و الحاج صالح في أكثر من مناسبة وجدناه يشدد غلى ضرورة تمكن الباحث اللساني العربي في اللغات الأجنبية، إضافة إلى تمكنه من اللغة العربية، لتطوير البحث اللساني العربي؛ ذلك أن أحادي اللغة لا يمكن أن يفيد بأي حال من الأحوال، سواء أ كانت أحادية لغته عربية أم أجنبية. و قد جاء في قوله: « فإننا سنبقى مهددين بخطر عظيم، وهو أن نعتقد أن الاكتفاء الذاتي في ميدان العلوم، هو مثل الاكتفاء الغذائي؛ فإذا اعتقدنا ذلك، فسنكون قد أغفلنا على أنفسنا مثل ما فعلنا في عصر الانحطاط، ونتجاهل بذلك ما يصدر في الخارج من الدراسات العلمية العظيمة القيمة، وهذا التقوقع هو خطير.»[2] وأكد على ضرورة الانفتاح في قوله: «...ولكن الاتكال على ما تركه أجدادنا الأبرار، وإغلاق باب الاجتهاد عليه هو أنجع الوسائل لتجميد الفكر.»[3]

2 _ الربط بين النظرتين العربية والغربية

لقد ربط الحاج صالح بين النظرتين العربية والغربية، في بعض الأحكام اللسانية، فبعد دراسته العميقة للتراث اللغوي العربي، وكذلك تمكنه من

1 _ الخطاب والتخاطب(في نظرية الوضع والاستعمال العربية)، ص204.

2 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص372

3 _ المرجع نفسه، ص124.

بعض العلوم العصرية كالرياضيات والمنطق، تهيّأ له اكتشاف التوافق بين بعض الأحكام الغربية والعربية._حيث يقول: « وبناء على ما التزمناه منذ أمد بعيد وما نصبو إليه من التقريب بين النزعات والتخفيف من وطأة الخلاف معتمدين في ذلك على ربط التراث العربي الأصيل بأحدث ما ينتجه العلم الحديث مما هو مجمع على صلاحيته، أو تسليط النقد البناء عليه.»[1]

_وقوله: «وقد أيقنا أن الدراسات اللغوية لن يكون لها أي شأن إذا لم يرجع أصحابها إلى الخليل...ويا حبذا لو درسوا في نفس الوقت نظريات علم اللسان الحديث. لأنه فيها من المعاني والمفاهيم لو تدبروا لوجدوها شديدة الشبه، وربما ساعدتهم على إدراك ما لا يزال غامضا لديهم من نظريات النحو العربي.»[2] ومع ذلك الحاج صالح يرفض سلوك بعض اللسانيين العرب المحدثين، وقد جعلوا للأحكام اللسانية الغربية صفة المركزية دوما في أي بحث لساني، وراحوا يبحثون عما يوافقها في التراث النحوي العربية.

ثانيا _ منهج تعليمي

ومن مؤشرات المنهج التعليمي عند الباحث ما يأتي:

أ _ تأليف الكتب وتأسيس المجلات، والنشر فيها:

1 _ سد الفراغ في المؤلفات اللسانية العربية

إن مؤلفات الحاج صالح ذات قيمة، ويمكنها أن تساهم في إثراء المكتبة اللسانية العربية، ويمكنها أن تكون مصباحا يستنير به الكثير من الباحثين اللسانيين العرب المحدثين، فقد جاء في كتابه بحوث ودراسات في علوم اللسان: «...إن هذا هو أحد الأسباب التي دفعتنا إلى كتابة هذا التحليل، وهناك سبب آخر ملازم له، وهو يرجع إلى شعورنا وشعور كل من ألم بشيء من هذا الفن بالفراغ المهول الذي يوجد الآن في صلب الدراسات العربية المتعلقة بعلم اللسان البشري العام...»[3].

1 _ بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص10.

2 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص114.

3 _ بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص8.

2 _ تبسيط المعلومات

من خلال اطلاعنا على كتب الحاج صالح استنتجنا حرصه على تبسيط ما ضمّنه بحوثه من معلومات، وهو يتوقع صعوبتها على القارئ، وشواهد ذلك:

_ قوله: «والذي نقصده من ورقتنا هو أن نساهم ولو مساهمة متواضعة في اختصار هذه الطريقة، وتوفير الجهود ما أمكن."[1]

_ وكذلك قوله: « ينبغي للمبتدئ الذي يخوض هذا العلم لأول مرة أن ينتبه إلى التباس خطير جدا.»[2]

ب _الاستطراد والشرح في كتاباته

ونجد ذلك من خلال ما يلي:

1 _ التوسع في الشرح

التوسع في الشرح والتفصيل سمة واضحة في منهج الحاج صالح، وهي دالة على خاصيته التعليمية، خاصة في حديثة عن النظرية الخليلية الحديثة. ويظهر هذه الميزة في اعتماده في جميع كتبه على مقدمات طويلة تتضمن شرحا للمفاهيم الأساسية التي يبنى عليها موضوع كتابه، والتي لها دورها في تيسير الفهم. والخاصية نفسها، (وهي التوسع) ميزت كذلك متن هذه الكتب، في مواضع تتطلب التوسع.

2 _ الاستعانة بالخطط والمخططات والرسومات

اهتم الباحث بإدراج خطة يسير عليها القارئ لكتبه في مقدمة كل منها. ومثال ذلك: قوله: «الخطة التي سنسير عليها»[3] ويستعين كثيرا في شرحه وتوضيحه بالمخططات والرسوم والجداول، ومثال ذلك: قوله : « اللغة وضعا واستعمالا في مقابل الثلاثية الغربية.[4]

1 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص231

2 _ بحوث ودراسات في علوم اللسان، هامش ص50.

3 _ منطق العرب في علوم اللسان، ص32.

4 _يراجع الخطاب والتخاطب(في نظرية الوضع والاستعمال العربية)، ص220.

ثالثا _ ترقية اللغة العربية الفصحى والرقي بها

يعتبر الباحث أن التفريط في اللسان العربي تفريطا في الهوية، فعمل على تعزيز الثقة بها، ومن ثم الاعتزاز بها، وذلك من خلال ما يأتي:

أ _ التفاعل مع مشكلاتها

تيقن الحاج صالح أن لا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ونجدتها إلا بالتفاعل مع مشكلاتها، كوضع المصطلح والمعجم، والترجمة، ولعل أهمها مشكلة صعوبة تعلم اللغة العربية، وحوسبتها. وفي مشاريعه الخاصة بالتعليميات ركز على تشخيص أسباب العزوف عن تعلم اللغة العربية، ووضح أن السبب الأكبر في ذلك كونها لم تعد لغة التخاطب في البيت والشارع، ولا المدرسة، بالإضافة إلى غياب عنصر الإمتاع والتشويق الذي يضمن أريحية الاستقبال عند المتعلم، وأيضا التطلع إلى معارف أخرى، ونصح المعلمين باتباع أحدث طرائق التدريس وأنجعها عالميا. وظهر بذلك اهتمامه بقضايا اللسانيات التطبيقية وترقية اللغة العربية وحل مشاكلها في مجالات حيوية في اللغة، كالتعليميات، والمصطلح، والترجمة، والمعاجم.

ب _ حرصه على اللغة العربية المستعملة

لقد كان اهتمام الحاج صالح وحرصه على اللغة المستعملة ظاهرا في كل تدابيره التي اقترحها كمشاريع لترقية العربية، بالاعتماد عليها والرجوع إليها خاصة ما تعلق بالتعليميات وبناء مناهجها، وكذلك صناعة المعاجم، ومنها المعجم التاريخي، والذخيرة اللغوية .

ج _ اقتراحه أن تكون العربية لغة العلوم

فقد اقتنع الباحث أن اللغة العربية تضمن قيمتها بالاستعمال، ولا مجال للشك أن هذه القيمة يعلو شأنها إذا كان استعمال اللغة في ميدان العلوم والتكنولوجيا، حيث جاء في قوله: « إن غياب اللغة العربية تماما من التكوين

والتعليم العلمي خاصة هو أخطر...فالتدهور الذي أصابنا كعرب ...منذ أن منعت العربية من أن تستعمل في أهم ميدان، وهو العلم والتكنولوجيا.»[1]

د _ إبراز مرونة اللغة العربية

فمن شروط تحديث اللغة مرونتها،«...وإن العربية التي استوعبت قديما، وما زالت تستوعب كل جديد، ولكن دون تغيّر في قواعدها وخصائصها اللغوية»[2]. فهي لغة مرنة قادرة على مسايرة كل جديد، وذلك الذي تصوره الحاج صالح من خلال النظرية الخليلية الحديثة، ومشاريع حوسبة اللغة العربية.

1 _ توفر خصائص اللسانيات في علم العربية

يؤمن الحاج صالح أن الكثير مما توصلت إليه اللسانيات الحديثة، هو مما تتوفر عليه علوم العربية، وكشف هذا التناسب من خلال مفاهيم النظرية الخليلية الحديثة، وما تتوفر عليه من خصائص رياضية، كمفهوم الباب، ومفهوم النظير، ومفهوم الأصل والفرع. حيث يقول الحاج صالح: «التناسب الوضعي الذي يوجد بين اللسان الحديث، وبين علم العربية.» [3]

2_ إمكانية استغلال التراث النحوي في ميادين عصرية

يتطلع الباحث من خلال مشاريعه الرائدة (النظرية الخليلية الحديثة، والذخيرة اللغوية العربية)، إلى تطوير اللغة العربية، وحل مشكلاتها. وجاء في قوله:» وأول دليل على ذلك هو إمكانية استغلال مفهوم العمل، وما يترتب عليه من عامل ومعمول أول، ومعمول ثان، كما فهمه سيبويه في معالجة النصوص بالحاسوب.» [4]

---

1 _ «الثنائية اللغوية بالنسبة للغة العربية وأوصافها الحقيقية: الإيجابية منها والسلبية»، عبد الرحمن الحاج صالح، ع15، ص17.

2 _ العربية وعلم اللغة الحديث، ص243.

3 _ بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص10.

4 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص170.

هـ _ تمجيد التراث النحوي العربي

1 _اعتبار أقوال الأوائل أصلا وغيرهم فرعا:

المعروف على الحاج صالح إعجابه الشديد بعمل النحاة العرب الأوائل، وتعلقه بهم، واعتبار أقوالهم الأصل الذي يجب أن ينطلق منه أي لساني عربي في عمله. وجاء في قوله: «وسيكون المنطلق دائما في كل ما نقوله ما قاله النحاة الأولون إذ قد تبين لنا بعد البحث الطويل، وكما لاحظه أكثر العلماء، أنهم قد سبقوا غيرهم في أكثر القضايا اللغوية التي تعرض لها الأصوليون والمتكلمون إلا في الأمور اللغوية الفلسفية المحضة.»[1]

_وجاء في قوله: «ونعتقد أن تشومسكي استوحى الكثير من أقواله مما قاله العلماء العرب[2] عن طريق ما نقله أحبار اليهود عنهم في القرون الوسطى، ومما نقله مباشرة من سيبويه من الترجمة الألبانية عن الاستقامة في اللفظ وفي المعنى لما أقامه من التمييز بين هاتين السلامتين، وكذا مفاهيم أخرى تخص النحو»[3]

2_ إيمانه بالسبق عند الأوائل:

في كثير من المناسبات صرّح الباحث، أن النحاة الأوائل كانوا السباقين

---

1 - الخطاب والتخاطب (في نظرية الوضع والاستعمال العربية)، ص11.

2 _ وقد سأل مازن الوعر تشومسكي في مقابلته معه في واشنطن بتاريخ 25/ 02/ 1980، ونشر هذا الحوار في مجلة اللسانيات، وكان السؤال الخامس من هذه المحاورة كما يأتي :» نعتقد نحن العرب بأن الجهود التي بذلها اللغويون العرب في علم اللسان الحديث، ما هي آراؤك حول هذه القضية،[فكان الجواب]: قبل أن أبدأ بدراسة اللسانيات العامة كنت أشتغل ببعض البحوث المتعلقة باللسانيات السامية. وما زلت أذكر دراستي الأجرومية منذ عدة سنوات خلت، أطن أكثر من ثلاثين سنة، وقد كنت أدرس مع الأستاذ فرانز روزنتال الذي يدرس الآن في جامعة يال، لقد كنت وقتذاك طالبا في المرحلة الجامعية، أدرس في جامعة بنسلفانيا، وكنت مهتما بالتراث النحوي العربي والعبري الذي نشأ في بعض ما كنت قرأته في تلك الفترة، ولكنني لا أشعر أنني كفء للحديث عن البحوث اللسانية التي كان العرب قد أسهموا بها لبناء علم اللسان الحديث». حول بعض القضايا الجدلية لنظرية القواعد التوليدية، ن تشومسكي، تعريب مازن الوعر، مجلة اللسانيات، معهد العلوم اللسانية والصوتية، ع 06، 1982 م. ص72.

3 - الخطاب والتخاطب، هامش ص205 .

لكثير مما يعتبر اكتشافا في اللسانيات الحديثة، يحتاج فقط إلى إعادة إحيائه والكشف عنه، خاصة ما جاء في كتاب سيبويه، وسبقه لبعض الحقائق اللسانية، والتي تعتبر الآن حديثة، وجاء في قوله: «وقد ميز سيبويه هو الأول بين الواجب من الكلام وغير الواجب، وهي نظرة لغوية محضة.»[1] وما جاء في قوله أيضا: «فعلى هذا يكون العلماء العرب أول من ميز بالتمييز الصريح بين وضع اللغة، وبين استعمال هذا الوضع.» [2] وقوله: «فقد بيّن سيبويه لأول مرة في تاريخ علوم اللسان أن اللفظ والمعنى ينفرد كل واحد منهما عن الآخر بالاستقامة أو عدم الاستقامة تخصه هو دون الآخر».[3] والحاج صالح يستشهد ويفتخر بتفوق العرب لغويين أو غير لغويين، وبعلماء آخرين من غير سيبويه والخليل، حيث يقول: «أول من دعا إلى التجربة الجاحظ.»[4] وقوله كذلك:» فإن لابن سينا تحديدا فنولوجيا محضا سبق به أهل الفنولوجية بقرون»[5]. وقوله أيضا: «ما اخترعه الغربيون من جديد في الرياضيات وكان قد ظهر منذ قرون عند العلماء العرب، وذلك مثل ما حققه علماء الجبر بعد الخوارزمي.» ويقول أيضا: «لا يمكن أن يجتمع عدد من مكعبين عدد مكعب، أثبت ذلك أحد العلماء قديما.» [6]

3_الربط بين عمل النحاة الأوائل واللسانيات الحديثة

وقد حكم الباحث بتميز النحاة الأوائل وعظم شأنهم، بعد طول دراسة للتراث النحوي العربي، ومقارنة تلك المعارف بما كشفت عنه الدراسات اللسانية الحديثة، حيث يقول: «فهذا يبين أن ماهية التقابل بين اللغة

1 - المرجع نفسه، ص18.

2 - المرجع نفسه ، ص269.

3 - المرجع نفسه، ص113.

4 _ مقابلة مع الحاج صالح. بالمجمع الجزائري. بتاريخ: 13/11/2013، من سا 10 و30 د إلى سا 11 و30 د.

5 - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص178.

6 _ منطق العرب في علوم اللسان، هامش ص11.

والكلام لم ينضج بعد تصورها، ولم تأخذ البعد العميق الذي يمثله الوضع والاستعمال عند العرب لا عند سوسور ولا عند من جاء بعده».[1]

_وجاء في قوله: «أنهم ميزوا قبل المحدثين من علماء اللسان بقرون بين ما هو راجع إلى استقامة اللفظ، وما يخص استقامة المعنى.»[2] _وجاء في قوله: «...نستخلص مما سبق أن مفهومي الحرف المتحرك والحرف الساكن هما أدق وأوعب من الناحية العلمية من المفاهيم اليونانية.»[3]

_ويقول أيضا «...فهذا القول وهو قول جميع اللغويين العرب الأولين، يخالف تماما النظرة اليونانية التي بني عليها تقسيمهم لأصوات اللغة إلى مصوتات وصوامت.[4]

ويقول: «ولئن كان هذا هو الأساس الذي بنى عليه سوسير مقابلته بين(paroles) وlangue)) فإن النظرية العربية هي أعمق وأوسع بكثير من نظرية العالم السويسري.»[5]

_ وقال أيضا: «ولا بد من التنبيه ههنا أن الذين نعنيهم هم العلماء الأولون الذين عاشوا في زمان الفصاحة اللغوية العفوية النطاق للحصول على أكبر مدونة لغوية شهدها تاريخ العلوم اللغوية.»[6] يقول: «ما يعد بالعشرات فيما وضعه النحاة الأولون، ويعتبر جديدا أو حديثا بالنسبة للمنهجية العلمية عامة، واللسانيات الحديثة خاصة على الرغم من ظهورها قبل اليوم بأكثر من ألف سنة...ثم إن التصور العربي للغة في زمان الخليل...كان يتميز عن كل ما سبقه من التصورات، والنظريات، عند الأمم الأخرى تميزا كبيرا، وسنرى أنه يتميز عن الكثير مما جاءت به العلوم اللسانية الحديثة من حيث التصور

1 - الخطاب والتخاطب، ص204.

2 - المرجع نفسه، ص114.

3 - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2 ، ص198.

4 - المرجع نفسه، ص175.

5 - الخطاب والتخاطب(في نظرية الوضع والاستعمال العربية)، ص12.

6 _ المرجع نفسه.

وطرق التحليل.»[1] ويقول: «وقد حاولنا أن نبين منذ أكثر من خمس وعشرين سنة القيمة العلمية العظيمة التي تتصف بها هذه الأقوال والنظريات التي ظهرت على أيدي أولئك العلماء العرب»[2] ومن ذلك الجانب الصوتي، حيث يقول: «وصف الخليل وسيبويه النظام الصوتي العربي على شكل مصفوفة... وهكذا يفعل علماء الصوتيات في زماننا.»[3] ويقول أيضا: «وتمتاز هذه الأصوات عندهم بالنسبة لغيرها باتساع المخرج...وقد بين ذلك العلماء في عصرنا.»[4] وقوله: «ثم إن الحركة كمفهوم دينامي لا يوجد مثله في أي نظرية إلا في نظرية الـ transitions».5

رابعا _ مشاركته في المشروع الحضاري العالمي

أ_ مشروع الذخيرة العربية

تقدم الذخيرة خدمات جليلة، فهي شبكة غير محدودة من شبكات الاتصال، والتي تربط الكثير من الشبكات الحاسوبية في مختلف أنحاء العالم بعضها ببعض ربطا لا مركزيا بواسطة نظم اتصال معقدة، ومتغيرة باستمرار، وإن ميزة العمل بهذه الشبكة في أن تقنياتها تجعل العربية تعيش عصرها، وتبلغ لأهلها ولغير أهلها.[6]

ب _ مشاريع المعاجم العربية

حيث أن الحاج صالح له مشاركة في مشاريع معاجم قومية عصرية، وهما المعجم التاريخي، ومعجم الرصيد اللغوي، والمشروع القومي الضخم، مشروع الذخيرة العربية.

---

1 - منطق العرب في علوم اللسان، ص12.

2 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص 169.

3 - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص67.

4 - المرجع نفسه، ص67.

5 _ المرجع نفسه، ص 198.

6 _ في الأمن اللغوي، ص76.

ج_ التعاون الدولي:

كان حرص الحاج صالح كبيرا على التعاون الدولي، وتبادل الخبرات في ميدان البحث اللساني، ومن شواهد ذلك:

_ما جاء في قوله: « وقد بينت البحوث الميدانية التي قام بها فريق من جامعتنا، وفرق أخرى في العالم العربي...»[1] _ويقول أيضا: «...وهذا ما نحاول أن ننجز جزءا منه في جامعتنا بالاشتراك مع بعض الباحثين العرب في المشرق بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بصفة خاصة.»[2]

_ويقول: « ومن أقدم من حقق التركيب الصناعي للكلام بالآلة... في مختبره بكاليفورنيا، وكان لي الشرف أن زرته في 1966 م.»[3]

_ «فقد تفضل جلال الحنفي من البلد الشقيق العراق بكتابة مسائل في مصطلحات التجويد، وطلب من مدير مجلة اللسانيات الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن يبين رأيه فيها، ففعل...وتفضل بعد ذلك بزيارة لمعهد العلوم اللسانية بالجزائر في عام 1983 م.»[4]

د _ دراسات لغوية لا تخص العربية وحدها بل جميع اللغات

الحاج صالح الذي يظهر عليه الاهتمام بقضايا اللسان العربي أكثر، في عمله اللساني، إلا أننا رأيناه يحاول أحيانا الوصول لبعض التعميمات في بحثه اللغوي، لتكون دراسته إضافة لعلم اللسان العام. وقد جاء في قوله: «فبهذا نستطيع أن نفسر قواعد التلفظ في العربية والكثير من اللغات.»[5]

وخلاصة لما سبق وفي شأن خصائص منهج الحاج صالح اللساني، فقد وجدناه في عمومه حمل الخصائص العامة للمنهج الإحيائي، والتي وجدناها عند كثير من الباحثين العرب المحدثين، فقد قام بإحياء التراث النحوي

---

1 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، موفم للنشر، ص160.

2 _ المرجع نفسه، ص159.

3 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، موفم للنشر، ص196.

4 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، موفم للنشر، هامش ص352.

5 _ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، موفم للنشر، ص185.

العربي بإعادة قراءته، ومحاورته بالعلوم العصرية والدقيقة، والمناهج اللسانية الحديثة. وفي محاولته الإحيائية فإنه قد تميز في منهجه ببعض الخصائص، ولعل أهمها اعتباره أن النحو العلمي للعرب، هو نحو الأوائل، وهم الخليل وأساتذته وتلميذه سيبويه، ومن تبعهم من المتأخرين، أمثال ابن جني والرضي، وتحفظه من بقية النحاة المتأخرين. وما يميزه كذلك علاقته بالمناهج اللسانية الغربية الحديثة، والتي انفتح عليها، واستفاد منها كعلم يدرس اللغة لذاتها، وأيضا ما وصلت إليه اللسانيات الحديثة، وقد أصبح هدفها البحث عن الآلة الواصفة للغة. ولكن الباحث يرفض تصنيفه مع أتباع أي منهج لساني غربي، رغم تصريحه أنه معجب بالمنهج التوليدي، وقد وجدنا تأثير هذا المنهج على الباحث في تحليله اللغوي. ونحن إذ لم نصنف منهج الحاج صالح في منهج لساني غربي خاص، فإن ذلك صعّب علينا الأمر في تتبع خصائص منهجه اللساني، والتي كان من الممكن معرفتها مسبقا، وتتبع تطبيقها عند الباحث، لتكون جاهزة لدينا، للاتكال عليها عند كشف المنهج، لو أنه كان تابعا لأحد المناهج اللسانية الغربية المعروفة. وبشكل عام نقرّ للحاج صالح بإيجابيات كبيرة ميزت منهجه، وقد ساهمت في تطوير البحث اللساني العربي، خاصة وأنه رغم انطلاقته من تراث تقليدي، فإنه يسعى إلى محاورته بالعلوم العصرية والتقنية الدقيقة، وهو يفرق بين النحو العلمي والنحو التعليمي في اللغة العربية، واقترح لترقية اللغة العربية، تدابير لحل مشاكلها، ولتعميم استعمالها. غير أنه هناك بعض النقص الذي نسجله على هذا المنهج، وهو انتقاد عام قد خصت به لسانيات التراث عموما، حيث يرى البعض أن الانطلاق من التراث النحوي، لا يمكن أن يبني لسانيات عربية حديثة بالمواصفات العلمية، ونحن لم نعط قيمة للغة العصرية كمنطلق للبحوث اللسانية، بعد هيمنة التراث، الذي ما هو إلا جزء من اللغة، ولا يمكن أن يحمل الخصائص الشاملة للغة العربية.

وهناك نقد موجه للحاج صالح في منهجه الخاص، وهو إقصاؤه لجهود المتأخرين في البحث اللغوي العربي، وما قد تحمله هذه الجهود من إثراء للبحث اللغوي العربي.

وفي الأخير ننوه بأهمية ما طرحه الحاج صالح منهجيا، كونه باحثا لسانيا عربيا حديثا أعماله تقدّم تصورا مبتكرا لبناء لسانيات عربية حديثة من الناحية العلمية والعملية، وهي تركز على اللغة العربية، منهجا وهدفا، فتربط موروث اللغة العربية بمستجدات البحث اللساني العالمي، وعلوم العصر الدقيقة، لتطويرها، وحل مشاكلها الراهنة.

مراجع البحث:

1_ بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، دط، 2007 م.

2_ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، ج1، ج2، دط، 2007م.

3_ تسجيلات صوتية: من خلال مقابلات شخصية مع الباحث عبد الرحمن الحاج صالح:

- مقابلة بالمجمع الجزائري للغة العربية. بتاريخ:22/ 05/ 2011، من سا 9 إلى سا 10 و30 د.
- مقابلة بالمجمع الجزائري للغة العربية. بتاريخ:21 /06/ 2011، من سا 9 إلى سا 10 و30 د.
- مقابلة بالمجمع الجزائري للغة العربية. : بتاريخ:29 /05 /2012، من سا 10 إلى سا 11.
- مقابلة بالمجمع الجزائري للغة العربية. بتاريخ: 03 /11 /2013، من سا 10 و30 د إلى سا 11 و30 د.

4_ الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية،عبد الرحمن الحاج صالح، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، دط، 2013م.

5_ السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة،عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، 2007 م.

6_ في الأمن اللغوي/ صالح بلعيد، دارهومة، دط، 2010 م، ص76.

7_ كراسات المركز(النظرية الخليلية الحديثة)،عبد الرحمن الحاج صالح، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، ع4، 2007 م.

8_ اللسانيات العربية الحديثة(دراسة نقدية في المصادروالأسس النظرية والمنهجية)، مصطفى غلفان، مطبعة فضالة. المغرب، دط، دت.

9_ مباحث تأسيسية في اللسانيات، عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 ، 2010 .

10_ منطق العرب في علوم اللسان/ عبد الرحمن الحاج صالح: منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر،2010 م.

المراجع الأجنبية:

11_Basset. L et Pérennec. M, Les classes de mots traditions et perspectives, presse universitaire de Lyon, 1994.

12 _Hadj Salah Abderahman, Linguistique arabe et Linguistique générale (Essai de méthodologie et d'épistémologie de l'IlM Al-arabia): publication de l'Académie Algérienne de la Langue Arabe,2013

المجلات

13 _ مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، (العدد15، 2012).

14 _مجلة اللسانيات(مجلة في علم اللسان البشري تصدرها جامعة الجزائر) ، (العدد06، 1982).